١٥ يونية ٢٠٢١

المعماري المعلم
عصام صفي الدين

جولة الإسكندرية

المنبع والمقصد والعمارة

كنت ظهر يوم السبت ٥ يونيو ٢٠٢١، في جولة سريعة، وغير مرتبة مسبقاً، بنطاق أقدم المواضع بمدينة الإسكندرية، والتي تعتبر منبع نشأة الإسكندرية ... ولم تكن هذه الجولة كجولاتي وقت الشباب حول أعوام أواخر الخمسينيات أو أوائل الستينيات، وأنا طالب في قسم عمارة الفنون الجميلة، مندفعاً بعاطفتي للتعرف على جوانب من الذات المعمارية المصرية .... سيراً متمهلاً على قدماي، مصطحباً أوراقي، وأقلامي، وكاميرا التصوير، في الأحياء القديمة من المدن المصرية العتيقة، إلا أن هذه الجولة كانت بالسيارة، مع الاسترجاع حنيناً إلى الماضي، وتعرفاً على المتغيرات والسلوكيات.

وهذا الموضع من الإسكندرية في ذلك اليوم كان من ميدان المنشية شمالاً وحتى الكتوب الغربي عند ميناء الإسكندرية، وهي المنطقة أو النطاق لموضع قرية الصيادين أصلاً، وقبل قدوم الإسكندر الأكبر. وتشمل حالياً جنوب الميناء الشرقي وميدان المنشية وشارع السبع بنات، ومدخل ميناء الإسكندرية .... وشارع الباب الأخضر والطريق إلى البيطاش (Beach) مروراً بالمكس، وسوق السمك القديم، وكوم الناضورة، وحارة ريتة وسكينة، وزقاق السبتات وكنيسة سانت ريتا، وسوق الجمعة وشارع حسن البحري، والأنفوشي، وقسم اللبان، وباب الكتوخة، وميناء البصل، ومنتهى ترعة المحمودية التي أنشأها والي مصر محمد علي باشا العظيم عام ١٨١٧ وكان عندها حجر ذكرى التأسيس لوصول ماء النيل إلى الإسكندرية، والذي تم نقله إلى متحف الحضارة. (١)

وضريح ومسجد سيدى عبد القادر الشاذلى (بضم الذال) ، وأيضا كان يعيش هنا عبد الله الرئيس (فيما أظن) ، وعلى مسافة ابن الشماب كانت جزيرة فاروس التى كانت عليها منارة الإسكندرية القديمة فى العصر البطلمى ، وحل محلها موضع قلعة قايتباى (بعد انهيارها) سابقا مع أحد انزلازل ... وحيث كانت من العجائب السبع فى الدنيا هى وأهراما ثم وأيضا هنا شمالا وغربا قليلا قصر رأس التين العظيم.

وجاء الإسكندر فاتحا أو مستعمرا ، واتخذ من موضع قرية الصيادين منطلقا لبناء عمران وخطط وشوارع حتى منطقة ما يسمى حاليا محطة الرمل ، وحيث كان أغلب هذا النطاق سيستوليا بلا مستويات تضاريس أرضية ملحوظة ، فكانت الشوارع المستقيمة الطويلة ، شأن غالبية المدن اليونانية والرومانية القديمة ، وبتقاطعات متعامدة عليها ، والقليل جدا من الانحناءات القوسية إلا فى حال ظروف أرضية أو مائية أو نباتية.

ومع مرور الزمن عبر أكثر من ألفى سنة ، امتد العمران المخطط أو العمران التلقائى شرقا وشماليا إلى الأطراف المؤدية إلى رشيد عبر أبو قير والمعمورة ، والمنتزه ، وغربا مع الجنوب النسبى إلى المكس والعجمى ثم إلى مشارف العلمين.

ومع أول أمس ... صادفت صورا مرسلة من الأستاذة الروائية والمتخصصة أصلا فى علم اللغويات ريم بسيونى ، وهى صور تحوى ذكريات لها عن أحد أحياء المنطقة منيا البصل ، وضريح ومسجد جدها لأمها سيدى عبد القادر الشاذلى .. ، فتذكرت فورا حوارنا يوم السبت المذكور ، وتداعت إلى خاطرى ذكريات نجوالى فترة شبابى باحثا عن أصول العمران والمعمار المصرى ، ومدخلى إلى عمارة مصر الشعبية ، والذى يشمل عمارة الريف والصحارى والسواحل والواحات والأحياء القديمة من المدن التاريخية العتيقة ، كأنماط خمسة أسست عليها منهجى لعلم العمارة الشعبية فى مصر المحروسة ، من خلال مدخلى العاطفى إلى بلدى.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

VII وتداعى إلى خاطري ما فكر فيه الإسكندر أصلا حين أوحت إليه هذه القرية للصيادين لتكون عاصمة للحكم، فكرا أو مستقبلا بمن يمكن أن يعتمد عليهم في تحقيق الهدف ما بعد أن تصور ما يجب أن تكون عليه المدينة من مكونات، فكان التخطيط وكانت الشوارع، وطبعا في حدود معين للتخطيط في زمنه، وليس فيما يجب أن يكون مما استجد من علوم وتكنولوجيا في زمننا الحالي من وجوب حصر الأعداد والمكونات والوظائف ودراسات متعمقة للأماكن والعلاقات ما بينه وبين المحيط والطاقة الطبيعي، وحسن توزيع كل الوظائف بالنسبة للمساحة الإجمالية وظروفها، وحسن توزيع للعلاقات بين هذه الوظائف واتصالاتها وفي ما بينها ..... واحتمالات متغيرات المستقبل في الوظائف وفي الكثافات السكانية والبنائية وعروض الطرق وتناسبها مع وسائل الحركة الفردية والجماعية .... وظيفة المدينة للإقليم أو وظيفة الإقليم للدولة، وهذا ما هو أساس بديهية الآن، وكذا النظم واللوائح والسياسات العامة واجراءات الالتزام وقوانين تنفيذها ومتابعاتها وصيانتها الدورية والاستباقية.

VIII وتحولت القرية البسيطة الرائدة والمكتفية بمواردها إلى هذه المدينة الضخمة، وتداعياتها، بعد حياة الصيادين والاشتغال بالصيد عملا وغذاء وما ترتب عليه من اشتغال بصناعات للمراكب، ومع بعض ما يمكن من زراعات بسيطة مناسبة لغذاء، ثم الاعتماد معها على تحقيق استيطان وعمارة معتمدة على المتوافر من مواد محلية للتأسيس وللإنشاء وللتشطيب وللتجميل، من حجر جنوب نطاق منطقة المكلس والعجمي، وبعض نباتات البحيرة الجنوبية أو غيرها، وبعض من جذوع النخيل، وإن كان صناعات لطوب من الأرض الطينية المالحة نسبيا وإن كنت أتعجب من كيفية وإمكان الحصول على أخشاب لصناعة السفن وزادات الصيد ثم لتلك ما قد نشأ من تجارة كمفيا وبسيط، وقد تطور تدريجيا، وطبعا مع احتمال الاعتماد على أصواف الأغنام المحتمل تربيتها مع التداخل التلقائي في أوساط البداوة.

IX فكانت الإسكندرية المدينة الجميلة على مر العصور متحولة إلى مراكز للتجارة والصناعة والتخزين والحرف والإدارة والثقافة والفنون ... والاصطياف.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بل وأصبحت الإسكندرية من أهم وأشهر المدن المطلة على البحر الأبيض المتوسط، وقد تلاحظ أن موقعها هو المدخل الفعلي للوطن المصري، المدخل من البحر، وفاقت رشيد ودمياط، وهي أيضا المدخل للقادمين من نطاق شمال أفريقيا كله، حتى بعد مرورهم بمدن أخرى ابتداء من الحدود المتاخمة لمصر مع ليبيا.

والإسكندرية خصوصية ثقافية جاذبة كمدينة... بل كموئل لعظماء ولوافدين أو مقصودة للاستقرار والاستيطان، وعلى رأسهم علماء، بل ويعلو هم بعض من كانوا حجة في مناهج التواصل مع الله بالتقوى وبالعلم وبالقدوة، فكانت شهرتهم المتزايدة، كمنابر للعلم بالدين ومنهم المرسي أبو العباس والشاطبي وبشر وعبد القادر الشاذلي... وكثرة آخرين. وهذا كله لا ينسينا بعد وجود عمر مكرم.... وعظماء المدينة عند أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر ممن كانوا سببا في اختيار وتأييد مؤسس مصر الحديثة محمد علي باشا العظيم ١٨٠٥.

أما عن العمارة وجمالياتها فيما بعد النشأة البسيطة كعمار يتعبد لقربى الصيادين... ثم التحول إلى مدينة وحضارة، وتواصل متأثر نسبيا بعمارة مصر القديمة ثم التأثير الأكبر لعمارة مصر المتأثرة باليونان ثم الرومان لفترة مئات السنين ثم القليل من البيزنطي، ثم عمارة مصر الإسلامية، ولكن ظل التأثير الروماني هو الأكثر وضوحا ومعه ملامح يونانية بحكم طول سيطرة الحكم الروماني، وسطوته وقدراته المادية والعسكرية، وأنه الأحدث والأقرب زمنا" بعد اليونانية، وهو ما ساعد على المذاق والإحساس بالتواجد المنتمي إلى حوض البحر المتوسط "أكثر من تأثيرات أخرى أصيلة بالموطن المصري عموما" ما لكن التأثير الأقوى طبعا وبحكم الزمن الأقرب هو لعمارة مصر في عصرها الواقع تحت الحكم العثماني، في خلال ما قبل محمد علي.

وقد بدى هذا على مواد وتقنيات البناء، والزخارف والفتحات والأبواب، وأعمال الخشب المشغول والحجر والرخام والبياض، ثم التطور الأكثر مع عصر محمد علي وما كان من معماريين أوروبيين عبر القرن التاسع عشر، ثم المعماريون الإيطاليون على وجه الخصوص مع أوائل القرن العشرين... ثم من المصريين... ثم بدايات التطور ما

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وهو الذى بدأ مع نهايات سنوات الخمسينيات ، سواء من سوء إدارة العمران أو الاستثناءات وعدم تطبيق اللوائح والقوانين ، وتمركز الأنشطة بالأزبكية مواز نات تخطيطية ، سواء من السكان أو من الحكام ، ولهما يسبقه تلقائية انتقال الاهتمام والتفضيل ما بين الأقدم والأحدث ، فوصل الحال إلى سوء ظواهر وجوهر العمران ، وتكدسات الكثافات السكنية والبنائية والمرورية ، وقبح المنجز المعمارى ، وضياع التوافق والتناسق ، والكتلة العامة ، والتحول من حال الإبداع المعمارى إلى سيطرة رأس المال غير المثقف ، وإلى العمل كهندسة وأعمال حسابات ، واستغلال القادر لغير القادر ، واختلاط الوظائف المتنافرة دون النظر إلى صالح العمران والإنسان ، والشكوى مما وصلنا إليه وكنا شركاء فى سببه .

وتعود إلى نطاق المنبع والنواة التى كانت جميلة فى نطاقها الموضح بالخريطة اليمينية كمساحة تضم المذكور ، وتشير إلى المعالم .... ومنها منطقة ميدان البهل ، والمنسوبة فى تقسيمتها أصلا لتجارة وتشوين وتوزيع البهل ، ثم الحبوب والميناء ، ثم كل ما استقبل من أنواع الحرف والصناعات والتبادل التجارى ، وتحول المنطقة تدريجيا إلى وظائف أكبر وأقوى من الوظيفة السكنية السائدة ، فنرى تأثير عمار الفترة العثمانية ثم الفترة الخاصة بمحمد على وأحفاده ، مع قوة وضوح مبانى المخازن والوكالات التجارية ومحلات التسوق والحرف ، والخدمات ، وملامح قليلة من جماليات العمار وسط كل هذا .... وسيطرة فوضى انشاءات أعوام الستينيات وحتى الآن ... وسط كل هذا بعض مواضع استقطاب النظر إلى جمال ، وحسن إلى الماضى ، خاصة عندما تمر أمام ضريح أو مسجد مثل ما للسيدى الشاذلى ، حتى وإن كان التصميم المعمارى سيئا ... لأن حال أغلب المبانى أصبح تحت سيطرة والمتشابهات من ليس لديهم فكر الإبداع والإتقان كما كان فى السابق .

وهنا نجد ضريح ومسجد الشاذلى متواضعا وغير متقن فى التصميم أو التشطيب أو المواد ، مختلفا عن غيره ممن كان له حظ الوجود فى نطاق أكثر حداثة مثل المرسى أبو العباس ... الذى صاغه المعمارى الإيطالى ماريو روسيتى ، والذى تمصر بحكم عمله والاهتمام بالمبانى الدينية فى وزارة الأوقاف وهى مجموعة من جماليات المساجد .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وهو نفسه صاحب تصميم مسجد القائد ابراهيم عند محطة الرمل ، ومسجد عمر مكرم بميدان التحرير بالقاهرة وغيره وغيره ... ممن استدعيوا لعمارة مصر الإسلامية خاصة في عصر عمارة مصر الملوكية واستلهموا منها أبداعاتهم.

وأصبح هذا الحي القديم العتيق مقصدا لإقامة كثير ممن وفدوا من شمال أفريقيا ، حيث كان وقتها قديما ومنذ أكثر من مائتي عام ، حيا جميلا راقيا ما فيه كل سبل الحياة العامة وخدماتها ، سواء كانوا من العوام أو من التجار أو ممن لهم صلة بالبناء ، ومن بين هؤلاء ، كان العارف بالله سيدي عبد القادر الشاذلي ، مستوطنا ، وتم الترحيب به بعد التعامل معه وإدراك قيمته ، وحسن أدائه وحديثه ، يوزع وقته بين صلاته ونسكه وبين عامة الجمهور وخاصته وكل من يقصده ، طالبا استفتاء أو مشورة ، جاء من ليبيا ، الجارة اللصيقة منبهرا بما سمعه عن مصر ومشبعا بحبها وقيمتها . واستقر مستوطنا ومات على رجاء حسن الأجر والثواب ، وحيث صعدت روحه إلى بارئها من خلال أرض الكنانة ، فكان أن إجتمع أهل الحي وقرروا الحفاظ على جثمانه في مسقط رأسهم ، ثم نقل مكانه هذا نفسه مقصدا لمن يريد من التبرك بمن اعتقدوا فيهم الصلاح ، كما هي عادة أغلب المصريون ، احتراما وتوقيرا ، وذكرى طيبة.

والنطاق كله كان معتمدا على مواد الحجر والطوب والنخيل بجذوعه وكفوفه للتجميد والإنشاء ، منذ أكثر من خمسمائة عام ، ثم مع أنواع من الأخشاب ومخلفات الأفران عالية الدرجة للحريق ، ثم دخلت مواد الحديد والنحاس ، ثم الأعمال ذات القوالب الجبسية للحليات ، ثم البياض ، وأخيرا وحول سنوات أواخر الثلاثينيات دخلت مباني الهياكل الخرسانية على استحياء ... واحترام للسابق ... ثم للأسف سادت منذ سنوات أواخر الخمسينيات .... ثم بمرور كل تيارات الزخارف وكل مخلفات مدارس التصميم السيئ ، ومع المتغيرات الوظيفية . وأيضا وللأسف لم يكن للمحترفين والإيطاليين دور واضح هنا إلا القليل النادر ، بينما كثر دورهم في الأماكن والأحياء المستحدثة مع أول القرن العشرين ، ومع ذوي القدرة والصفوة من أصحاب المال والراغبين في البناء الخاص والعام.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ولا عجب في أن يكون من نسل محمد علي باشا من يفكر في تخصيص مساحة من الأراضي لإفادة سيدي الشاذلي ... حتى وإن أصر هو على دفع ثمنها ترفعا وكبرياء، فقد كان أغلبهم ممن يحترمون أهل البر والتقوى، ومنهم من سعى إلى عمران وتعمير وصناعة وتعليم وفن وثقافة وزراعة وصناعة.

وأخيرا فلا عجب أن يكون من نسل الأتقياء من تمتد عليه البركات (وكان أبوهما صالحا" .. صدق الله العظيم). فتصبح ابنة الحفيدة "أستاذة" وكاتبة روائية متميزة (يم بسيوني ... فيذيع وينتشر اسمها في الوسط التعليمي والوسط الأدبي الروائي.

ولا عجب أن تكون نسبة كبيرة من أعمالها بوحي من الأماكن والأحياء ... ما ثم لا عجب طبعا في ذلك حيث أن الروايات هي تنويع من العمارة في الحبكة والجسم الواحد والتواصل والتفاصيل ... ثم والإيحاءات التي قد تدفع إلى ابتداع آخر لدى المبدع والمتلقي.
فالعمارة عبارة والعمارة لغة ، وكذلك الرواية عبارة ولغة .. والعمارة تحتوي وتهدف والرواية تحتوي وتهدف ، والعمارة تبدأ بالخيال وتنتهي بالتجسيد ... والرواية تبدأ بالخيال وتنتهي بالإيحاء بأنك تعيش مع شخوصها وأماكنها كما لو كانت مجسدة.

كل هذا بسبب مصادفتي للصور عبر المحمول مشمولة بكتابة عن مكان وعن ذكريات وعاطفية الماضي واحترام الأهل والأصول، وذكرهم ... بالدعاء وبالفضل والإحساس بهم بمسئولية الخلف تجاه السلف.

عصام حسن

C.C1/٦/١٥

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner